

الإمام فيصل بن تركي في شعر الشيخ الشاعر: أحمد بن مشرف

للدكتور

محمد بن سعد بن حسين

رئيس قسم الأدب بكلية اللغة العربية

لم نجد من الشعراء بعد الشيخ حسين بن غنام من عُنِيَ بأحداث الدولة السعودية مثل عناية الشيخ ابن مشرف، ذلك العالم الشاعر الذي أخلص في سره وعلنه للدعوة وزعمائها، فنظم كثيرا من شعره في مدحهم، والدفاع عنهم، والرد على أعداء الدعوة، وله في ذلك ديوان طبع ثلاث مرات ولكنه لم يجد عناية من الباحثين، كما أن الناشرين لم يحسنوا في إبراز محاسن هذا الديوان، كما لم يحسنوا في إرشاد القارئ إلى محتوياته عن طريق ثبت منظم للقصائد .

أقول ذلك لأنني حين استعنت بثبت محتويات الطبعة الثالثة لم أجد فيه نصا على قصائد الشاعر في الامام فيصل غير قصيدتين، ولو لم أكن قد قرأت الديوان من قبل وعلمت أن فيه الكثير عن الامام فيصل لصدقت «الثبت» ولم أورد له هنا غير تينك القصيدتين .

من هنا كان على أن أتصفح الديوان صفحة صفحة، وهذا ما فعلت، فخرجت من ذلك بست وعشرين قصيدة في الامام فيصل، رحمه الله.

ونتيجة لذلك عزمت بمشيئة الله أن أنظمه في المستقبل إن شاء الله وأخرجه بعد التنقيح والتعليق إخراجا جديدا ييسر الاستفادة من هذا السفر الجليل .

ولقد كان ابن مشرف رحمه الله يقيم في الاحساء، ولكنه كان يلاحق أخبار الامام وانتصاراته ملاحقة المحب لنهجه وسيرته؛ لأنه رأى فيه - كما هو الواقع - الرجل الأمثل لقيادة الأمة والنجاة بها من حياة الفوضى والاضطراب اللذين حلأ بالبلاد بعد عهد الدولة السعودية الأولى، وذلك بعد أن فتح له والده الامام تركي الطريق .

من هنا وجدنا ابن مشرف يوالى نظم القصائد في الامام فيصل وإرسالها إليه في الرياض، إذا لم يتيسر له السفر إليه .

وأولى قصائده في الامام نظمها في عام ١٢٤٥هـ وآخرها في رثائه رحمه الله عام ١٢٨٣هـ .

وكان ابن مشرف في تلك القصائد كما كان في جميع شعره يجعل للدين المرتبة الأولى في الاهتمام، وهذا يفسر لنا سراً اهتمام هذا العالم الشاعر بالامام فيصل بن تركي، فهو - أعنى الامام - رجل صالح تقى، وإمام عادل لم يسفك دماً حراماً بشهادة المؤرخين والعلماء، ورجل كريم مفضل، وبخاصة على المحتاجين من فقراء وأرامل وأيتام وأشباههم، وفارس شجاع مقدم لم تهزم له راية ولم ينب له حسام، ثم هو عالم جليل له يد في التفسير والحديث والفقه والسير والتاريخ، فلا بدع أن خصه ابن مشرف بخرائد شعره وعيون نظمه دون سائر الامراء الذين كان يستطيع أن يستدر هباتهم ومنحهم لو كان من طلاب المال أو الجاه، ولكنه عالم تقى لا يمدح ولا يذم إلا في الله، فرحم الله ابن مشرف وجراه خير الجزاء .

«قصائد ابن المشرف في الامام»

وأقدم ما عثرنا عليه من قصائده في الامام (اللامية) التي نظمها في مناسبة استنقاذ الاحساء عام ١٢٤٥هـ ومنها

والمال يربو لمن ربي رعيته بعدله ونفى للظلم أغلالاً^(١)

وفي الثناء على ذلك الفتح، وبيان أثره الحميد على (الأحسا) يقول :

واه لها وقعة من أفقها طلعت	شمس الهدى فمحت للشرك أطلالا
فتح به فتحت للدين أعينه	فأبصرت بعد دمع طالما سالا
فتح به فتح الرحمن أفئدة	غلغا أدار عليها الرين أقبالا
فتح به استبشرت هجر وقد فخرت	لما ملكت بها مدنا وأعمالا

(١) ديوان ابن مشرف الطبعة الثالثة، مطبعة السنة المحمدية: ص: ٨٦

أثواب عدلك قد ألبستها جددا
 فيها بثت أمور العدل فانتشرت
 فأصبحت بك هجر كالعروس زهت
 ماست من التيه واختالت وحق لها
 تلك المكارم لا قعبان من لبن
 فاحمد الهك إذ ولاك أنعمه
 وهاك منى قريضا قد حوى دُررا
 جهد المقل وقد أهدها معذرا
 من بعد أن خلعت للظلم أسمالا
 وحكم الشرع أقوالا وأفعالا
 بحليها، لم تذر شنفًا وخلخالا
 بزينة العدل أن تزهر وتختالا
 شيباً بماء فعادا بعد أبوالا
 واشكره ما دمت، تعظيما وإجلالا
 ما ان ترى مثلها في الحسن أمثالا
 لا خيل عندي أهديها ولا مسالا

وفي عام ١٢٥٠هـ أخذ الامام فيصل الثار في أبيه من قاتله ابن عمه مشارى بن عبدالرحمن، فنظم ابن مشرف في ذلك قصيدة (لامية) أيضا بدأها بالحديث عن البذل والجد مشيرا فيها إلى أن الحاكم الحازم هو ذلك الذى يكرم جنوده فى الرخاء والشدة على حد سواء. ولعل حالا لحظها ابن مشرف فى سياسة مشارى أو سواه، فأملت عليه مثل هذا الحديث الذى ساقه مساق النصح للامام فيصل، ثم نظم ما يشبه الحكاية لحكم مشارى ثم قضاء الامام عليه، ومن ذلك قوله:

ما راعك الخطب الذى قد شابهت
 لكن جلبيت ظلامه بلوامع
 سيان حالك فى المسرة والأسى
 ما جاش جاشك فى الحوادث إذ دعت
 أذكى الجهول ضرامها لسفاهة
 قطع الذى أمر الاله بوصله
 وجنى على الاسلام شر جناية
 فأحل منتهكا حرمة مسلم
 طلب العلو ببيغيه وبظلمه
 أيامه ظلمات ليل أليل^(٢)
 وبسهم عزم كالشهاب المرسل
 جلدا، وذا شأن اللبيب الأكمل
 فى فتنة تغلى كغلى المرجل
 كى يستضى بنورها فيها صلى
 فلأجل ذا أسبابه لم توصل
 فأقر عين أخى النفاق المبطل
 ملك، فعوقب بالعقاب الاعجل
 جهلا فرد إلى الحضيض الأسفل

(٢) ديوان ابن مشرف : ص ٨٨

ولأجل نصرة نفسه بذل القوى
حتى إذا ملك الخزائن واستوى
ملاً الإله فؤاده وصحابه
لا تحسب الملك القصور وما حوت
بل مالك الملك الإله وأنه
جمع الإله له القلوب فأجمعت
وانقاد كل المسلمين لأمره
حتى إذا حدق الخميس بمن بغى
عض على طرف البنان، وقال من
فهناك أيقن أن أنجم سعه

لكن من خذل المهيمن يخذل
جهرًا على القصر المشيد الأطول
رعبًا، وصاح به القضاء الأنزل
من آلة للحرب أو متمول
جعل الخلافة في الإمام الأعدل
كل النفوس على إمامة فيصل
طوعًا وتلك مواهب المتفضل
حنقًا وجد به الذي لم يهزل
فرط الأسى: يا ليتنى لم أفعل
أفلت وطالع نحسه لم يأفل

وبعد فراغه من تصوير الحال الذميمة التي صار إليها مشارى وأعوانه قدم وافرا
من النصح للإمام فيصل .

وفي عام ١٢٦٣هـ أزمع الشاعر الرحيل إلى الرياض حيث الامام فيصل فنظم
قصيدة في مدحه، لكنك تحس الاستجداء في كل بيت من أبياتها .

لقد بدأ الشاعر قصيدته بالشكوى من الحادثات والنوائب، والزمن الذي يذل العالم
ويعز الجاهل، ثم من عيشه المنغص، إلا أن هذه عادة الدنيا تهين أرباب النهى وتكرم
الأراذل والسفهاء، ثم عاب الدنيا بكونها تعز عند الاقبال وتذل عند الادبار: فهي لا أمان
لها. وهكذا يمضي حتى يقول:

لبست لها ثوب التجلد منشدا
وساءلت: هلى فى دهرنا من مساعد
فلم أر إلا الالمعى أخا الندى

إذا لم يسالك الزمان فحارب^(٣)
على جبر مطلوب وإسعاف طالب
إمام الهدى نسل الكرام الأطايب

(٣) ديوان ابن مشرف ص : ٤٤

كريم المساعى فيصل من يراعه على طرسه يحكى هتون السحاب

ثم يصف رحلته إلى الرياض وما لقيه فيها من عناء، إذا أفضى به المسير إلى حيث
الامام ارتاح وارتاحت مطاياه، ثم خاطب الامام بما هو أهل له من كرم وشجاعة وعلو
همة، وأن الآتين إليه يرجعون وقد ملئت حقائبهم، بعد أن كانت فارغة قبل الوفود عليه .

وفي العام نفسه ١٢٦٣هـ نظم قصيدة أخرى لم يشر إلى سببها غير أنها مدح للامام
فيصل وثناء عليه بمثل ما حوته القصيدة السالفة، ومطلع هذه القصيدة :

ليال المنى جادت علينا بأسعد	لنن جمعتنا بالامام المسدد ^(٤)
حليف المعالي «فيصل» من سمت به	مناقبه فوق الشريا وفرقد
تفرع عن روح المكارم وانتمى	من الحسب السامى إلى خير محدد
كريم السجايا ماجد من أماجد	بنوا فى المعالى كل فخر وسؤدد
ولكنه أضحى بأعلا أرومة	يقصر عن إدراكها كل سيد
إمام الهدى جالى الصدى منهل الندى	ومردى العدا بالمشرفى المهند

وفي هذا العام أيضا ١٢٦٣هـ رحل الشاعر بقصيدة أخرى إلى الامام فيصل. وليس
فيها من جديد تمتاز به عن سابقتها سوى أن الشاعر صحب الامام فى جولة بإقليم
الخرج صورها بقوله :

سبحان من قدر الأشياء سبحانا	قضى وقدر ما يجرى وما كانا ^(٥)
قضى بالطفاه الحسنى ورحمته	أنا نسير من الاحساء ركبانا
نؤم حاكم نجد فى رياض ندى	تستنبت الجود لا شوكا وسعدانا
حتى إذا سار نحو الخرج محدقة	به النجائب مع خيل وفرسانا

(٤) ديوان ابن مشرف ص : ٦٤

(٥) ديوان ابن مشرف ص : ١٠٤

سرنا بصحبته أنسا به فغدا يولى الأرامل والأيتام إحسانا
 جاز اليامة فاعتاشت أراملها من نيله وكسا من كان عريانا
 وممر بالقرية الأخرى فحوّلها نعماً، وبثّ العطا فى أهل نعجانا
 حتى أتى الدلم المعروف معتبرا بما جرى، محدثا لله شكرانا
 فجاد بالوابل الهطال راحته على بقاع دهاها الجذب أزمانا

وفى عام ١٢٦٩هـ بعث عائض بن مرعى أمير عسير إلى الإمام فيصل هدية أرفقها
 بقصيدة نظمها الشيخ (على بن الحسين الحفظى) قاضى عسير فخر فيها بقومه وأيامهم .

فأجابه ابن مشرف بقصيدة هى من جيد نظمه وإن لم تكن أجوده، افتتحها بنسيب
 قضى فيه ١٦ بيتا افتتحه بقوله :

بشير سعاد جاء نحوك فاسعد وقد عدت وصلا فأوفت بموعده^(٦)

وختمه بأبيات حوت حسن تخلص جميل :

فلو برزت يوما لغيلان لم يهم بى ولم يبد القريض لمنشد
 ولولحت بالطرف طرفة ما بكى لحولة اطلالا ببرقة ثمهد
 لقد أصبحت فى الغانيات فريدة كما انفرد الوالى بحزم وسؤدد
 حليف المعالى «فيصل» ناصر الهدى مديق العدى كأس الردى بالمهند

ثم أفاض فى مدح الامام فيصل وأثنى على آبائه بمواقفهم الجليلة وبخاصة تأييدهم
 ونصرتهم للامام محمد بن عبدالوهاب، وأثنى عليهم وعليه بما عرفوا به جميعا من شجاعة
 ونبل أخلاق وتفان فى نصرة الدين الحنيف بالدعوة والمؤلفات ثم السيوف .

(٦) ديوان ابن مشرف ص : ٦١

ثم انتقل إلى الثناء على الشيخ الحفظى والأمير عائض ثم أجداده وقومه، ومما قاله في ذلك:

ولا تنس ذا الحى اليمانى إنه لشيعة أهل الحق بالحق مقتدى
قبائل من همدان أو من شنؤه من الأزد اتباع الرئيس المسود
هموا قد حمو للدين إذ فل عضبه وبدد منه الشمل كل مبدد
فهم فئة للمسلمين ومعقل وكهف منيع للشريد المطرد
سما للعلى حقا (على) ولم يزل يروح بأسباب الجهاد ويغتدى

ومما تحسن الإشارة إليه هنا أن الشيخ ابن مشرف يذهب في مطالع القصيدة (النسيب) مذهب الأقدمين، وهو نهج سلكه شعراء عصره في مطالع قصيدهم كالبارودى في مصر مثلاً، ثم الذين أتوا من بعد ابن مشرف .

وفي عام ١٢٧٥هـ نظم ابن مشرف في الامام فيصل أربع قصائد تشير إليها حسب ترتيبها في الديوان، وإن كنا لا نرتاح إلى صنيع مرتبه لأنه لم يلزم فيها نسقا معيناً، بل إن نسقه نموذج للفوضى كما سنوضحه لك في غير هذا المقام.

وأولى هذه القصائد الأربع نظمها في استنهاض الإمام فيصل لتأديب الأعراب الذين عاثوا في الأحساء فساداً، وقد بدأها بالنسيب كسابقتها، وكان تخلصه منه بقوله:

أنا فى ربي نجد وأنت ببلدة أحاطت بها الأعداء من كل جانب^(٧)
يغيرون فى أطرافها وسروحها جهارا ولا يخشون سوطا لضارب
فكم قعدوا للمسلمين بمرصد وكم أفسدوا فى سبلها بالتهائب

وبعد أبيات ذم فيها الأعراب وصنيعهم، وغفلة أرباب الأمر فى الأحساء عنهم قال:

(٧) ديوان ابن مشرف ص ٤٦

فلا دين إلا بالجهاد قوامه
ولا ملك حتى تخضب البيض بالدماء
ولا مجد إلا بالشجاعة والندى
فقل لإمام المسلمين وسر له
وأشده إن أحسست منه تشاقلا
ولا أمن إلا بعد سلّ القواضب
من الهام في أطرافه والجوانب
وجر العوالي فوق مجرى السلاهب
بنفسك، أو أبلغه مع كل راكب
إذا لم يسالك الزمان فحارب

ثم قضى باقى القصيدة فى حث وإغراء للإمام بالجهاد وتذكيره بأن جماع سبل العز فى الشجاعة والكرم، وختم قصيدته بفخره بنفسه وشعره، وهذه سنة سار عليها فى جل ختام قصيده، يقول فى ختام هذه القصيدة:

ودونك نظما ينهض الشهم للعللا
بدا من أديب كالجمان قريضه
إذا قال قولاً أنشد الدهر نظمه
ويدعو إلى حسن الثنا والمناقب
طبيب زمان عارف بالتجارب
وغنى به أهل الحجى والمناصب

والقصيدة الأخرى التى نظمها فى الامام هذا العام (١٢٧٥هـ) كان يستنهضه فيها لتأديب الأعراب الذين لا يكبح جاح من عصا الدين منهم إلا السيف، وقد بسط هذا المعنى فى قصيدته التى بدأها بالنسيب وثنى بوصف أحوال الأعراب فى حال عصيانهم وما يؤول بهم إليه هذا العصيان، ثم مضى إلى مدح الامام بالجود والكرم والشجاعة فى مثل قوله:

وأما إمام المسلمين فإنه
صفوحا عن الجانى وإن كان مجرما
وينصر أهل الدين والعلم والحجى
مطايه فى غزو العدو مشيحه
لمسعر حرب بالمساكين يرأف^(٨)
سؤولا عن العانى به يتلطف
ويكرمهم بالمكرمات ويتحف
عطايه تزرى بالكنوز وتحف

(٨) ديوان ابن مشرف ص ٨٣

هو البحر ينتاب العطاش وورده وكل امرئ يروى المزاد ويغرف
فأسيفه من خصمه ترعف الدما وأقلامه بالبذل والجلود ترعف

أما ثالث قصيدة نظمها في الامام هذا العام فانها فائية أيضا، افتتحها بمدح الجود والكرم، ثم جرد من نفسه لائمة تلومه على عدم طلب المال وتقول له إن الشعر شيء لا جدوى من ورائه، فيرد عليها بأنه ظهر من يجزى على القصيدة بخير الجزاء .

يارب قائلة يوما وقد عذلت	مالى أراك بنظم الشعر ذا كلف ^(٩)
والدهر أبناؤه بالمال قد بخلوا	فهم يرون الندى ضربا من السرف
كأنما قد تواصلوا في الطباع على	منع الحقوق وشد العقد بالحلف
ما للقريض إذا أهديته ثمن	ولو نظمت لهم دُرًّا من الصدف
قلت - ابشرى فلقد جاد الزمان لنا	بعارض جاد بالأموال والتحف
أمامنا الندب ميمون النقيبة من	ساسى الرعية بالاحسان والنصف
بنى الأمور على ساس التقى فرست	والغير يبنى على أوهى شفا جرف
سما بهمته نحو العلا فعلا	حتى استوى فوق هام المجد والشرف
أندى البرية كفا وهو أشجع من	قد هز عطفه بين البيض والجحف
العفو والحلم والاحسان شيمته	لا خير فى الطيش والآمال والعنف
أخى مكارم عن معن بن زائدة	تروى وعن فارس الهيجا أبى دلف

أما القصيدة الرابعة والأخيرة فيما نظم هذا العام فيبدو أنه وقد بها على الامام فيصل، ولا جديد فيها سوى أنه في النسب الذى صدرت به ساق الحديث مساق حوار مع صاحبه المتخيلة (سلمى) ومن ذلك قوله:

طرقنا أهلها ليلا فقالت من الآتى وأهلونا نياما^(١٠)

(٩) ديوان ابن مشرف ص ٨٤

(١٠) ديوان ابن مشرف ص ٩٥

فقلت لها : محب جاء ضيفا
فقلت : كيف زرت ودون وصلى
وقومى أشرعوا دونى رماحا
فقلت: أما سمعتى أو شعرتى
تبدل بالثياب جلود نمر
فصار الذئب للاغنام سلما
إمام للهدى يدعو البرايا
فلا تجفى محبا مستهما
حروب نارها تذكى الضراما
وسلوا البيض وانتشلوا السهاما
بأن امامنا أبدى الكماما
وسل على أولى الظلم الحساما
وصاحب فى الفلا النعم النعاما
ويبعث للعدى جيشا لهاما

وفى عام ١٢٧٦هـ نظم ابن مشرف قصيدتين فى الامام، فأما القصيدة الأولى فكانت فى تهنئته بانتصار الجيش الذى قاده ابنه عبدالله لتأديب بعض الأعراب، وقد افتتح القصيدة بحمد الله على نعمه التى من جليلها هذا النصر الذى استبشرت به نجد والخط وهجر.

لله الحمد اللهم ما نزل القطر
وما هبت النكبا رخاء وزعزعا
فمن ذلك الفتح المبين الذى له
تفتح أبواب السماء لمثله
فناهيك من فتح به أمن الفلا
تسامى به نجد إلى ذروة العلا
لقد سرنما ما جاءنا من بشارة
لذن قيل عبدالله أقبل عاديا
رئيس به سيم الخلافة قد بدت
وما نسخ الديجور من ليلنا الفجر^(١١)
على نعم لا يستطيع لها حصر
تهلل وجه الدين وابتسم الثغر
ويعلو بسيط الأرض أثوابها الخضر
وأسفرت البلدان وابتهج الحضر
وأسفر وجه الخط وافتخرت هجر
فزالت هموم النفس وانشرح الصدر
يقود أسودا فى الحروب لها زار
وفى وجهه الاقبال والعز والنصر

ولعلك تلاحظ أن فى هذه القصيدة ظلا واضحا لإحدى قصائد أبى تمام فى رثاء الطوسى التى منها قوله :

(١١) ديوان ابن مشرف ص ٦٦

تردى ثياب الموت حمرا فما دجى لها الليل الا وهى من سندس خضر

واحتذاء ابن مشرف أشعار الأقدمين، وبخاصة شعر الفحول كأبى تمام والمنتبى واضح في شعره، لكنه احتذاء لم يسلب الشاعر شخصيته ولم يحول شعره إلى صدى لأشعار الآخرين، بل ترك لابن مشرف شاعر القرن الثالث عشر الهجرى بالجزيرة طابعه وسأته، وإن قصر في ميدان الصوغ عن شأ أولئك الفحول .

أما ثانى قصيدة قالها في الامام هذا العام فكانت تحريضا على الجهاد، وما سمعت هذه القصيدة إلا استحسنت سماعها واستعدته، ولست أدري لماذا تذكرنى بقصيدة لأحمد شوقى، ذلك الفحل الذى ولد بعد عام من وفاة ابن مشرف . أما قصيدة شوقى فهى تلك التى يقول في مطلعها:

هل تيمّ البان فؤاد الحمام فلاح فاستبكي جفون الغمام^(١٢)
يهزه الأيك إلى إلفه هزّ الفراش المدنف المستهام

واسمح لى أيها القارىء بأن أستبد بوقتكَ، وأفرض عليك ذوقى، فربما سعدت بالتأثير عليك واستصحبك مع ابن مشرف فى هذا المطلع النسيبى الجميل الذى تتجلى فيه شاعرية ابن مشرف دون ستار من التقليد أو التكلف؛ لأن الشاعر فيما يبدو قد انفعل بالحدث انفعالا أطلقه من إसार التقليد لينطلق فى أفق الابداع فى الصوغ والتصوير :

ما هتف الورق وغنا الحمام أو غرد القمرى جنح الظلام^(١٣)
أو هب للصبح نسيم الصبا لا صبا قلب الفتى وعز المرام
بهكنه تحوى صنوف البها كأنها فى الحس بدر التمام
مياسة الأعطاف من ظلمها تسقى مجيها كؤوس المدام

(١٢) الشوقيات ج٢ ص ١٣٦

(١٣) ديوانه ص ٩٩

قد زارنى فى هجعة طيفها
 فقلت فى الاعتبار: ما الجفا؟
 وما الذى حلل فى شرعكم
 قالت: خذ العذر، فمن بيننا
 قوم من الأعراب من جهلهم
 وقطعوا السبل وعاثوا بها
 عادات سوء رضعوا ثديها
 والذئب قد يعدو على غرة
 والنار بالزندين ابراؤها
 فقلت: لا تخشى ولا تحذرى
 وما تجلت للهدى شمس
 أحسبين الجبن من طبعه؟
 فإن تأئى فله عزمه
 لكن سلى الله مغيث الورى
 فتسرح الانعام فى نبتة
 فيه جياذ الخيل مجنوبة
 تحمل للحرب أسود الشرى
 قد طال صوم الخيل فى طيلها
 تعدو مع الرايات منشورة
 وعصبة من قومهم قد نشوا
 يا راكبا من أرض هجر ضحى

من بعد أن نام كثير الأنام
 ان الوفا بالعهد دين الكرام
 هجران ذى ود بهجر أقام؟
 قد حال أوباش جفاة طعام
 قد خرقوا الدين وداسوا الكمام
 وحللوا سفك الدماء الحرام
 فاستصعبوا بعد الرضاع الفطام
 فى غنم الراعى لها إذ ينام
 وأول الحرب قبيح الكلام
 ما صاحب السيف يمين الامام
 الا انجلى عنها دخان القتام
 لا والذى يحىي رميم العظام
 وهكذا شأن الرئيس الهمام
 أن يحىي الأرض بوبل الغمام
 ويبعث الوالى بجيش هام
 من كل قبا ألجمت باللجام
 والبيض والسمر وزرق السهام
 فاشتاقت اليوم لترك الصيام
 على الامام الشهم وابن الامام
 فى نصرة الدين ورعى الزمام
 إن رمت نجدا فالرياض الامام

ثم يقضى باقى القصيدة فى مدح الامام وبيان أن الجهاد ما سن إلا ليقيم ما اعوج
 من أحوال الخارجين، ثم يفخر بشعره، ويختتم بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم،
 كشأنه فى جميع شعره .

وفي شوال ١٢٧٧هـ نظم الشاعر تهنئة للامام بانتصار جيشه على فلول الاعراب
بالاحساء، وافتتح القصيدة بحمد الله وشكره، والثناء عليه بما هو أهله من إنعام وإكرام
لعباده الصالحين .

وهذا منهج في مطالع القصائد عند ابن مشرف كان يراوح بينه وبين النسيب ومنه
قوله :

لك الحمد اللهم يا خير ناصر	لدين الهدى ما لاح نجم لناظر ^(١٤)
وما انغلق الاصباح من مطلع الضيا	فجل وجلى حالكات الدياجر
لك الحمد ما هب النسيم من الصبا	وما انهل ودق المعصرات المواطر
على الفتح والنصر العزيز الذى سما	فقرت به منا جميع النواظر
واظهار دين قد وعدت ظهوره	على الدين طرا فى جميع الجزائر
وعدت فأنجزت الوعود ولم تزل	معزا لارباب التقى والبصائر
لك الحمد مولانا على نصر حزينا	على كل باغ فى البلاد وفاجر

وبعد حديث عن نكت الأعراب للعهد ومقابلتهم إحسان الامام بالاساءة كصنيع
مجير أم عامر انتقل إلى تهنئة الامام وابنه بهذين العيدين، عيد الانتصار على فلول
الاعراب، وعيد الفطر بعد نعمة الصيام .

تفوه بمدح للامام ونجله	ومعشره أهل العلا والمفاخر
كفاه من المجد المؤئل ما انتمى	إليه من العليا وطيب العناصر
فشكراً إمام المسلمين لما جرى	وهل تثبت النعماء إلا لشاكر؟
فهنيئ بالعيدين بالفتح أولا	وعيد كمال الصوم إحدى الشعائر
وشكر الأيادى بالنواصى والتقى	بترك المناهى وامتنال الأوامر
صبرت فنلت النصر بالصبر والمنى	وما انقادت الآمال إلا لصابر

(١٤) ديوان ابن مشرف ص ٦٨

وفي عام ١٢٧٨هـ نظم الشاعر ابن مشرف في الامام فيصل ثلاث قصائد، فأما أولاهـا فيبدو أنه نظمها حين أزمع الرحيل إلى الرياض حيث الامام فيصل وقد افتتحها بالحديث عن نيته تلك. وهذا مذهب ثالث في مطالع ابن مشرف كان ينزع إليه حيناً ومنه قوله في هذه القصيدة :

إذا أنت أجمعت المسير لتنجدا	فلا تعد قصرا في الرياض مشيدا ^(١٥)
بناه إمام المسلمين ولم يزل	يؤسس ما يبني على الدين والهدى
ترى حوله الأضياف تلتمس القرى	وقوما يريدون المكارم والندى
فيرجع كل نائلا ما يرومه	من العدل والاحسان والفضل والجدا
كريما يرى للمعتفين إذا أتوا	ومن يطلب المعروف حقا مؤكدا
تعود بسط الكف طبعا ، وانما	لكل امرئ من دهره ما تعودا

أما القصيدة الثانية في عام ١٢٧٨هـ فيبدو من أبياتها أنها تهنئة بانتصار حققه جيش الامام فيصل بقيادة ابنه عبدالله، بدليل مثل قوله فيها:

فكم نعمة أوليتنا بعد نعمة وفتح به قد صح من كان أرمدا^(١٦)

وكان ابن مشرف يلقب فيصل بن تركي (بالامام)، ولكنه في هذه القصيدة يجمع له (الملك، الامام) وذلك في قوله :

ونسأله التوفيق للشكر، انه	يكون لنعماء الاله مقيدا
على أن هدانا ثم ألف بيتنا	بملك إمام، واجتماع على الهدى
اماما به الرحمن أمّن سبلنا	وكف يدى من كان في الأرض مفسدا
وقوم أركان الشريعة ناصرا	بسُمر القنا والبيض سنة أحدا

(١٥) ديوان ابن مشرف ص ٥٤

(١٦) ديوان ابن مشرف ص ٥٦

أما القصيدة الثالثة في هذا العام ١٢٧٨هـ فإن الشاعر يفتتحها بنسب يمدح فيه نفسه متذكرا عهد سلمى في أيام الشباب واقفا على أطلال منازلها، شاكيا من هجرها حين شاب رأسه، ولكنه يخلص من هذا النسب إلى الفخر بنسبه التميمي، ثم ذكر نسب ممدوحه بعد الفخر بمصادقة الامام :

فما بالها تصبو إلى كل يافع وتهجر شيخا والداه تميم؟^(١٧)
إمام حوى كل المكارم والعلا وطاب له في العالمين أروم
له نسب في وائل بن ربيعة نماء إلى أعلى الفخار صميم
تفرع من صيد الملوك الذين هم لهم مكرمات جمة وحلوم

ثم يقضى القصيدة في مدح الامام، ووصف رحلته إليه ثم الفخر بشعره.

وفي عام ١٢٧٩هـ وفي (عنيزة) انتصر جيش الامام فيصل بقيادة ابنه عبدالله فهناه ابن مشرف بقصيدة مطلعها :

سبحان من عقد الامور وحلها وأعز شرعة أحمد وأجلها^(١٨)
وقضى على فئة عنت عن أمره بهوانه فأهانها وأذلها
كفرت بأنعم ربها فأذاقها بأس الحروب فلا أقول لعلها

ثم قضى القصيدة في مدح الامام ثم الفخر بشعره.

وفي عام ١٢٨٠هـ نظم ابن مشرف في مدح الامام فيصل ثلاث قصائد: الأولى لم

(١٧) ديوان ابن مشرف ص ٩٦

(١٨) ديوان ابن مشرف ص ١٠٥

نجد فيها ما يدل على مناسبة ما، بدأها بنسيب تأثر فيه بقول الشاعر العباسي في قصيدته
التي يقول فيها :

قل للمليحة في الخمار الأسود ماذا فعلت بزاهد متعبد

ومطلع نسيب ابن مشرف
قل للمليحة في القميص الأحمر ماذا فعلت بعباد مستبصر^(١٩)

ويخلص من هذا النسيب إلى مدح الامام بقوله:

لا تتلفى بالصد مهجة مغرم فيصيب قومك سطوة من قسور
من فيصل ملك الجزيرة من سما للمجد حتى حل فوق المشتري
نصر الهدى وحوى الشجاعة والندى ليث وغيث للمقل المعسر

ويقضى باقى القصيدة في مدح الامام فيصل. لكنه في هذه يمدحه بموقف آبائه من
الامام محمد بن عبد الوهاب ونصرهم له، ودفاعهم عن دعوته، والعمل على نشرها رحمهم
الله جميعا وجزاهم عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء.

أما القصيدة الثالثة في عام ١٢٨٠هـ فقد قصد بها الامام فيصل في الرياض
ومطلعها:

لقد لاح سعد النيرات الطوالع وغابت نحوس من جميع المطالع^(٢٠)

(١٩) ديوان ابن مشرف ص ٧١

(٢٠) ديوان ابن مشرف ص ٧٧

أما في عام ١٢٨١هـ فان الشاعر ينظم في مدح الامام قصيدتين:
الاولى لم تتضمن سبباً كما لم تخرج عن سابقاتها إلا بأبيات فيها ذم لأهل العصر
ثم فخر الشاعر بكونه سلاحاً من أسلحة الإمام يهاجم أعداءه وينصر أصفياه

فأهل العصر مثل الطير طبعاً	بخفتها وأحلام السعال ^(٢١)
فإن جربت أكثرهم تجدهم	على صنفين : ختال وقال
علامات النفاق بهم تراها	ثلاث هن من شر الختال
خيانتهم وإخلاف لوعده	وكثرة كذبهم عند المقال
فسل على البوادي سيف عزم	وقاتلهم على منع العقال
وأدبهم إذا انتهبوا وعاشوا	بحد المهرفات وبالنكال
وانى من سيوفك لست أنبو	أنافح من قلاك ولا أبالي
وانسج فى علاك برود مدح	وادراعا تقى وقع النصال
فان فقت الملوك وانت منهم	فان المسك بعض دم الغزال

أما القصيدة الثانية فيبدو أن الشاعر أراد فيها أن يشيد بالأمن والاستقرار والعدل
والطمأنينة التى عمت وسادت فى أيام الامام فيصل رحمه الله، ومطلع هذه القصيدة:

بعدل ولاة الأمر ترسو دعائمه وتأمين فى قفر الفلاة سوائمه^(٢٢)

وهناك قصيدتان خلتا مما يحدد زمن نظمها؛ فأما أولاهما فقد خلت أيضاً من ذكر
لسبب نظمها، غير أن موضوعها فى مدح الامام ومطلعها:

على الدوح قد غنى الحمام وغردا فجأوبه السدم المعنى وأسعدا^(٢٣)

(٢١) ديوان ابن مشرف ص ٩٢

(٢٢) ديوان ابن مشرف ص ٩٨

(٢٣) ديوان ابن مشرف ص ٥٢

وفى أبياتها ما يدل على أنه احتذى فيها قصيدة أبي الطيب المتنبي في مدح سيف الدولة الحمداني وهي التي مطلعها:

لكل امرئ من دهره ما تعودا وعادة سيف الدولة الطعن في العدا

أما ما يظهر فيه الاحتذاء عند ابن مشرف فقوله

تعودت بسط الكف طبعاً وإنما لكل امرئ من دهره ما تعودا

وهو تضمن حسن .

أما القصيدة الثانية فقد نظمها الشاعر عندما أمر الامام فيصل بمصادرة نخيل بعض الخارجين واستعطفه فيها، ومن هنا جاءت القصيدة ذكراً لأعمال الامام وقراراً بفضلله وثناءً على ما من الله به على البلاد في عهده من أمن وطمأنينة واستقرار ومطلع هذه القصيدة:

تبكى الحساء بدمع سافح جارئ من أجل خطب جسيم حادث جارئ^(٢٤)

وفى عام ١٢٨٢هـ توفى الامام فيصل بن تركي رحمه الله فرثاه ابن مشرف بقصيدتين الأولى في سنة وفاته، والثانية في العام الذي بعده.

ويدلنا هذا على بالغ الأثر الذي تركته وفاة الامام في نفس الشاعر، وإلا فما الذي يدفعه الى تجديد الرثاء بعد عام ؟

فأما القصيدة الأولى التي نظمها في عام ١٢٨٢هـ فقد افتتحها بقوله:

(٢٤) ديوان ابن مشرف ص ٦٥

على فيصل بحر الندى والمكارم بكينا بدمع مثل صوب الغمام^(٢٥)

والقصيدة كلها ذكر للصفات التي كان يمدح بها الامام في حياته ، ثم الثناء على
خلفه ابنه (عبدالله) .

ونستطيع أن نقول إن ابن مشرف لم يفعل بالحدث ولم تستجب له مشاعره
واحساساته الأمر الذي أملى عليه فيها مثل قوله:

فدونك أبياتا حوت كل مدحة فأضحت كمثل الدرفى سلك ناظم

وقد يقال إن أهم فارق بين شعر المدح والرثاء، أن الأول مدح للأحياء، والثاني مدح
للموتى، غير أن لكل منهما خصائصه وسماته ولم يتضح في هذه القصيدة من خصائص
الرثاء سوى المطلع، على ضعف فيه .

أما ثمانية قصيدته في رثاء الامام فتلك التي نظمها في عام ١٢٨٣هـ ومطلعها:

أتقبل عذر الصب، أم انت عاذله بذكرى حبيب عنه شطت منازل؟^(٢٦)

والحق أن هذه القصيدة ليست من الرثاء في شيء وإنما هي قصيدة نظمت في مدح
ثلاثة: الامام عبدالله بن فيصل، والشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن، وألده عبدالرحمن.

ثم ان القصيدة بدأت بالنسيب وهو لا يلائم الرثاء، وبخاصة أن فيه مثل قوله:

(٢٥) ديوان ابن مشرف ص ١٠٢

(٢٦) ديوان ابن مشرف ص ٩٢

غزال حوى كل المحاسن والبهاء يغازلنى بعد العشا وأغازله

فلعل الشاعر اتخذ من الرثاء عنوانا لها توددا الى قلب الامام عبدالله وتقربا إليه، والله أعلم.

وخلاصة القول في شعر هذا الشاعر:

أن ابن مشرف في شعره ينجح إلى المعارضة والمحاكاة، ولعل أهم الأسباب في ذلك:

أ - أنه ظهر في عصر قل فيه الشعراء، أو قل ندر فيه إقبال المثقفين على الشعر، غير أن ابن مشرف نزع إلى تقليد الفحول السابقين كأبى تمام والمتنبي، ولذا فإنه يعد أول رائد من رواد الشعر الحديث في جزيرة العرب .

ب - أن ابن مشرف، انطلاقا من تأثره بالسابقين عُنى بالنسيب في مطالع قصائده لكنه نسيب محتشم خال من التبذل .

ج - وابن مشرف كثير العناية بالمطلع، وحسن التخلص، أما مقاطعه فإنها صلاة على النبي صلى الله عليه وسلم .

د - وهو في مدحه يُعنى بصفات المدح التي أكثر الشعراء من استخدامها في المديح، لكنه نزع عن الحسيات كالصفات الجسمية، واتجه إلى المعنويات كالتقى، والعفاف، والعلم، والكرم، والشجاعة، والحب والنسب وكرم الدجار .

هـ - وهو في مدحه الامام فيصل يحرص على وصفه بالامام، وقد يصفه بالوالى أو الملك .

و - ومما يحرص عليه ابن مشرف أيضا الفخر بشعره وأن قصائده من حسان القصائد، ولا تكاد تجد قصيدة إلا وفي ختامها فخر بشعره .

ز - وتحس في شعر ابن مشرف شيئا من الالحاح في الطلب، ولذا فانه يمكن إلحاقه بشعراء

التكسب، لكن لا يجوز حمل جميع شعر الرجل على هذا المحمل، ذلك أن جله ذو أهداف سامية كالدعوة إلى رفع الظلم ودفع الباغين والقضاء عليهم، والحث على العدل وما إلى ذلك مما دل عليه كثير مما أوردنا من شعره، كالقصص والحكم ونظم مسائل الدين والتاريخ، ثم الردود الداخلة في باب الهجاء والمناقضات فإن لنا حديثاً مستقلاً عنها إن شاء الله .

IMAM FAISAL IBN TOURKEY IN THE POETRY OF SHAIKH AHMED IBN MOUSHARRAF.

By . Dr . Muhammad Ibn Saad Ibn Husain .

Shaikh Ibn Mosharraf lived in Al Ihsa at the time of Imam Faisal Ibn Tourkey. Ibn Mousharraf was a scholar and a poet. His poetry book was published thrice but it was neglected by many researchers because the publishers did not make an efficient index to help guide the reader. When trying to make use of the index of the third edition I could not pick but two poems only on Imam Faisal. Had I trusted the index I would not have collected the twenty-six poems in favour of Imam Faisal, alluded to here.

Ibn Mousharraf was an admirer of Imam Faisal and believed that he was the ideal man to lead the nation in the path of righteousness and to put in order all the chaos that ruled the country after the fall of the first Saudi regime.

The first traced poem of Ibn Mousharraf in favour of Imam Faisal Ibn Tourkey was written in 1242- A. H. The last one in 1283, shortly before his death.

Ibn Mousharraf used to put religion as his first concern. so, the theme throughout his poetry book is derived from religious ethics. Ibn Mousharraf was not after money and reputation but he was true in favouring Imam Faisal because Faisal was a true believer in-God, righteous, generous, and a brilliant scholar in jurisprudence, biography and history.